

الوطنية في فكر الشيخ البشير الإبراهيمي

أ. مرزوق العمري

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

جامعة باتنة

مقدمة: إطار تاريخي

إن الدارس لفكر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يجد أن محاوره ثلاثة: الإسلام والعروبة والجزائر؛ هذه المحاور هي التي سخر لها الشيخ البشير الإبراهيمي فكره وقلمه ونذر لها عمره ووقته. وجعل منها أسس مشروعه النهضة: فقد كان يؤمن بأن لا نهضة دونما تحرير للأرواح والأبدان، والإسلام هو دين التحرير وهو النبأ الذي كان أصحاب الأرواح الصافية يترقبونه، ولا نهضة أيضا دون العروبة لعمقها في التاريخ الذي عرفها باديا وحاضرا وعرف بها الحكمة والنبوة، أما الجزائر فهي الوطن الذي يراد له أن يحتضن هذه النهضة، وقد شغلت الجزائر بال الشيخ البشير الإبراهيمي واستأثرت بعواطفه فأقسم يمينا أن لو تبرجت له المواطن في حللها لتفتنه عن وطنه لما رأى له عديلا ولما اتخذ عنه بديلا¹.

وقد شهدت البيئة الزمنية التي عاشها الشيخ البشير الإبراهيمي (1889-1965) أحداثا كثيرة كان لها أثرها البالغ على الشعب الجزائري المستعمر. والشيخ البشير الإبراهيمي واحد من أبناء هذا الشعب وقد شب في ظرف تاريخي جزائري جد حرج؛ إذ كانت بداية هذه الرحلة الحياتية وقوف على نتائج المقاومات الشعبية التي لم توفق في محاولة بلوغها هدفها الذي هو استقلال الجزائر وطرد المستعمر.

¹ — آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي ط 1، 1997، ج 4 ص 184.

ثم شهد في شبابه الحرب العالمية الأولى وانعكاساتها على الشعوب المستعمرة مثل الجزائر وقبل أن ينسى العالم هذه الحرب شبت الحرب العالمية الثانية التي عايشها الشيخ البشير الإبراهيمي وقد نضج فكره وتقدمت سنه ورسخ علمه. فنظر إليها نظرة الخبير بالأساليب الاستعمارية فثار لوطنيته مبينا للجزائريين ما يفعل بهم من طرف فرنسا التي استغلتهم أيما استغلال بأن حاربوا معها ونصروها ودافعوا عنها ولكنها دائما تخذلهم، مثل ما حدث لهم حينما حاربوا معها وفي صفها ضد ألمانيا ولما حققت بهم النصر وحمت بهم وطنها الأصلي لم ترع لهم جميلا ولا كافأهم بجميل، بل انتصرت بهم ثم خذلتهم، وصنعت حياتها بهم ثم قتلتهم. وبهذا فالشيخ الإبراهيمي يحذر من ابتزاز وطنية الجزائريين من طرف الاستعمار وفي عنصرها الأساسي الذي هو المواطن الجزائري الذي اغتصبت فرنسا أرضه، وسيطرت على عقله فأقنعتة بالدفاع عنها فاستغلت بذلك بدنه بعد أن استغلت أرضه وثرواته والمقابل الذي يتلقاه هو الموت.

ولا أدل على ذلك من أحداث 8 ماي 1945 التي كانت عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة وكيف تعاملت فرنسا مع الجزائريين في ذلك اليوم المشؤوم وقد كان الحدث له أثره العميق في نفس الشيخ الإبراهيمي كما كان محل اهتمامه الفكري فكتب عن الحدث ومن خلاله مبينا بأن ذلك اليوم مكافأة فرنسية للجزائريين الذين حاربوا معها ألمانيا فقال: "يوم ليس بالغريب عن رزنامة الاستعمار الفرنسي بهذا الوطن فكم له من أيام مثله ولكن الغريب فيه أن يجعل - عن قصد - ختاماً لكتاب الحرب ممن أنهكتهم الحرب على من قاسمهم لأواعها، وأعانهم على إحراز النصر فيها".¹

كما عرفت الجزائر أيضا أيام الشيخ الإبراهيمي ظواهر أخرى كثيرة لا تقل خطرا على الاستعمار في الفتك بالوطنية، وإن تغيرت طبيعتها وأختلفت وسائلها، وهي على اختلافها

¹ - المرجع نفسه ج 3 ص 333.

تشكل جهات متعددة منها ما يشوه الهوية الوطنية، ومنها ما يشكل داء قاتلا يهدف القضاء على هذه الهوية وهذه الجهات هي:

(1) جبهة الطرقية المنحرفة التي كانت توشي إلى الجزائريين أن الاستعمار قضاء وقدر، ولا مفر من القدر بل يجب أن نستسلم له لأن في رفضه مروق من الدين.

(2) جبهة المستلبين: وهم الذين نالوا حظا وافرا من الثقافة الفرنسية، فصاروا ينظرون إلى هويتهم نظرة المستعمر، فكانوا يسخرون من دينهم ولغتهم وتاريخهم، وقد تعامل الشيخ الإبراهيمي مع هذه الفئة على أنهم ضحايا يجب إنقاذهم.

(3) جبهة الطرقية السياسية: وهي نتيجة طبيعية للطرقية المنحرفة، وتعمل هذه الجبهة على حصر القضية الوطنية في شخص الزعيم لا على أنها قضية أمة.

هذه الفئات التي كانت بالجمتمع الجزائري لا يمكن الشك في خطرها على الهوية الوطنية لما لها من إشاعة للخطأ الذي كان أحد أسباب إطالة عمر الاستعمار في بلادنا، ولذلك كان الشيخ الإبراهيمي يؤمن بأن الدفاع عن الوطنية يبدأ بمواجهة هؤلاء؛ لأنه لا يمكن أن تتحرر الأبدان والعقول لا تزال مستعبدة.

من جهة أخرى كان لحركات الإصلاح التي عرفها العالم الإسلامي في نهاية القرن 19 وخلال القرن 20 أثرها الجلي في فكر الشيخ البشير الإبراهيمي. لأنها حركات كانت تهدف إلى الحفاظ على هوية المسلمين، وعلى استرجاع أوطانهم السلية مثل حركة جمال الدين الأفغاني ورشيد رضا الذي أتيح للشيخ الإبراهيمي أن يزوره خلال إقامته بمصر كما تأثر قبل ذلك بأبي الحركة الوطنية الأمير عبد القادر الجزائري.

إن هذه العوامل من رواسب نفسية وعسكرية للمقاومات الشعبية الجزائرية في القرن 19 وأحداث القرن 20 مثل الحريين الكونيتين وانعكاساتها على وطنية الجزائري. ومن أحداث داخلية وخارجية كانت لا شك تدفع كل ذي وطنية أن يندفع لأجل الدفاع عن وطنه وعن

هويته وقد قيض الله للجزائر في تلك الظروف الشيخ الإبراهيمي الذي شكلت الوطنية لديه انشغالا فكريا واسعا.

وقد كان انشغاله اليومي بوطنه سر عدم التفرغ للكتابة والتأليف رغم غزارة علمه ولمعان قلمه ولم يفته أن يبين ذلك للجزائريين فقال "لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا ولكنني أتسلى بأنني ألفت للشعب رجالا وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته، وصححت له موازين إدراكه فأصبح إنسانا أيا. وحسي هذا مقربا من رضا الرب ورضا الشعب".¹

ولذلك حينما نسعى إلى استكشاف الوطنية في فكر الشيخ الإبراهيمي فإنه يتعذر علينا الفصل بين فكره وهذه القضية "الوطنية". وقد تنبه المهتمون بفكره إلى هذه المسألة فجعلوا فهم أفكار الإبراهيمي منوطا بالمرحلة التاريخية من عمر الجزائر التي كان يكتب فيها. ولما كانت تلك المرحلة التي كان يكتب فيها على هذا القدر الكبير من الارتباط بالتحويلات التي كانت تعيشها الجزائر فيمكن أن ينظر إلى مسألة الوطنية في فكر الشيخ الإبراهيمي مرتبطة بتلك التحويلات في ثلاث مراحل أساسية:

أولا: مرحلة ما قبل الثورة:

لم يترك الشيخ الإبراهيمي قبل 1920 أثارا مكتوبة لكن هذا لا يعني عدم اهتمامه بوطنه بدليل أن لقاءه بابن باديس في موسم الحج سنة 1913 كان قد تضمن التفكير في بعث الأمة الجزائرية، ولا شك أن تلك اللقاءات هي بداية التفكير في إنشاء جمعية العلماء التي خدمت الوطنية خدمة واسعة.

وفي سنة 1920 وهي السنة التي عاد فيها الشيخ الإبراهيمي إلى الجزائر بعد رحلته المشرقية الثانية بنية خدمة الوطن ولولا الوطنية ل بقي هناك خاصة وقد عرضت عليه إدارة التعليم من

¹ - المرجع نفسه ج 5 ص 288.

طرف الأمير فيصل بن الحسين، فرفض ذلك العرض وعاد إلى الجزائر التي صار يعلم عنها أن الجو فيها أصبح ملائما للعمل المثمر في العلم وفي السياسة.¹

ولا شك أن التعليم والتوعية السياسية من أهم أدوات ترسيخ الهوية الوطنية لذلك ورغم صلاحية الجو الجديد للعمل السياسي إلا أن استعداد الجزائريين لم يكن كافيا. وقد استغرق ذلك الإعداد 10 سنوات حتى حلت سنة 1930 التي أسفرت عن تأسيس جمعية العلماء المسلمين في الوقت الذي كانت تحتفل فيه فرنسا بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر واستغل ذلك الاحتفال من طرف رجال الجمعية لإثارة نخوة الجزائريين من أجل التشبث بوطنهم. يقول الشيخ إبراهيم أهيمني: "واستغللنا نحن ذلك كله في إثارة نخوتها — أي الأمة الجزائرية — وإيقاظ إحساسها وإكمال إعدادها للعمل. وفشلت تلك المهرجانات بأعمالنا وبعوامل أخرى خارجية وخسرت فرنسا آمالها المرجوة منها".²

وكان ذلك الخسران ببروز هيئة جمعية العلماء الجزائريين التي تحمل مشروعا للعمل للوطنية وكان الشيخ إبراهيم أهيمني من مؤسسي تلك الجمعية التي اعتبرت من الهيئات المحددة لفكرة الوطن.³ ولما كان الهدف الأقرب للشيخ إبراهيم أهيمني هو تحرير الجزائر، آمن بأن ذلك لن يكون إلا باتحاد جميع أبنائها ممثلين في نخبهم السياسية، وكتب في ذلك مقالين في أواخر سنة 1947 أحدهما بعنوان دعوة صارخة إلى اتحاد الأحزاب والهيئات والآخر بعنوان دعوة مكررة إلى الاتحاد، كما سعى سعيا حثيثا لأجل توحيد تلك الفضائل السياسية التي كانت تحمل تصورات مختلفة للعمل السياسي ومن ذلك سعيه في القضاء على الخلاف بين حزب أنصار الحريات

¹ — المرجع نفسه ج 5 ص 167.

² — نفس المرجع والصفحة.

³ — الحكم بأن مجددي فكرة الوطن الجزائري هم رجال جمعية العلماء هو حكم للدكتور محمود قاسم وقد وظف هذه الشهادة الأستاذ محمد الهادي الحسني في السياق التاريخي للجزء الأول من آثار الشيخ إبراهيم أهيمني ص 25.

الديمقراطية وحزب أحباب البيان ويذكر الشيخ الإبراهيمي أن اتصاله بهم في مفاوضات الاتحاد بين هذين الحزبين دام ستة أشهر كاملة¹.

ومما لا شك فيه أن سعي الشيخ الإبراهيمي في توحيد الحزبين وإعلانه عن الجهد الذي بذله في ذلك لدليل قوي على غيرته على وطنيته التي كانت تنتظر من جميع الجزائريين أن يهبوا لخدمتها وللحفاظ عليها.

ومن صور اعتناء الشيخ الإبراهيمي بمسألة الوطنية مراسلته للرئيس الفرنسي المعنونة بـ "كتاب مفتوح إلى رئيس الجمهورية الفرنسية" والتي نشرتها البصائر في عددها 81 الصادر في 30 ماي 1949 والتي حذر فيها من تنويع هوية الشعب الجزائري وطمس معالمها، ويبين أنه رغم تلك الجهود الهادفة إلى ضرب هوية الجزائري فإن الشعب الجزائري لا يؤمن إلا بأركان حياته الأربعة: ذاتية الجزائرية، وجنسيته ولغته العربية ودينه الإسلامي. وفي المقال نفسه يحذر الشيخ الإبراهيمي مما كانت فرنسا تلقي به إلى مسامع أبنائها والجزائريين معا بما عرف بمسألة "الوحدة الفرنسية" وقد انتقلها الشيخ الإبراهيمي انتقادا حادا مبينا بأنها مرفوضة من جميع الوجود، وأنها لا تصلح بين جزائري وفرنسي وبين المسجد والكنيسة. وبين عربية وفرنسية. وبين مسيحية وإسلام.

ولما استمرت السلطة الاستعمارية في مواقفها كان من جهود الشيخ الإبراهيمي سعيه إلى تدويل القضية الجزائرية وذلك من خلال اتصاله بالوفود العربية والإسلامية في مؤتمر الأمم المتحدة، واقترح على هذه الوفود عرض قضية الجزائر على الجمعية العامة للأمم المتحدة، وقد أقام الشيخ مأدبة عشاء باسم جمعية العلماء على شرف الوفود العربية والإسلامية في منظمة الأمم المتحدة وذلك في 19 جانفي 1952، وألقى الشيخ الإبراهيمي خطبة بدا من خلالها كأنه

¹ - آثار الإمام الإبراهيمي ج 2 ص 262.

شعر بدنو الثورة المسلحة، إذ أشار إلى أن العمل السياسي إذا لم يحقق الأمل فسيحل محله العمل العسكري وهذا ماورد في كلامه: "وإن بعد اللسان لخطيبا صامتا هو السنان".¹

ومن صور اعتنائه بالوطنية وقوفه عند أحداث 8 ماي 1945 التي سجن فيها، كما كتب عنها معتبرا ذلك اليوم "مظلم الجوانب بالظلم مطرز الحواشي بالدماء المطبولة، مقشعر الأرض من بطش الأقوياء، مبتهج السماء بأرواح الشهداء"²؛ موجهها من خلال كلمته هذه رسالة إلى الجزائريين الذين وضعوا ثقتهم في الاستعمار بأن لا يثقوا فيه، وأن يثوروا لقضيتهم معاتباً لهم لتصديقهم الاستعمار قائلًا: "أما هذه الأمة فكانت تقاتل لخيال من أمل وفناء من حياة، وصباية من رجاء وخلف من وعد علا نداؤه وتجاوبت في الخافقين أصداؤه، من ديمقراطية زائفة كذب نبهها مرتين"³.

كما خدم الشيخ الإبراهيمي الوطنية في هذه المرحلة على المستوى النفسي إذ كانت نداءاته تهدف إلى نزع هيبة الفرنسيين من نفوس الجزائريين مبينا أن تلك الهيبة التي يظهر بها الاستعمار وتلك الرهبة التي بثها في نفوسهم ما هي إلا وهم من الأوهام، وأن سببها هو تشتت الجزائريين وذلك مكمن الضعف، ولذلك يخاطبهم قائلًا: "لا تستئسوا إن لم يكن لكم بعض مألديهم من القوة المادية، فعندكم من القوة المعنوية مالمو أحستتم تصريفه واستغلاله لغلب ضعفكم قوتهم"⁴. ولم تكن قضية الوطنية في الفكر السياسي فحسب عند الشيخ الإبراهيمي في هذه المرحلة بل تجلت أبعادها في خطابه التربوي وكنا الأدبي. وذلك ما تبينه مقالاته التربوية الموجهة للشباب مثلاً؛ ففي مقاله الشهير "الشباب الجزائري كما تمثله لي الخواطر" يصور كيف ينبغي أن يكون الشاب

¹ — المرجع نفسه ج 2 ص 466.

² — المرجع نفسه ج 3 ص 333.

³ — المرجع نفسه ج 3 ص 334.

⁴ — المرجع نفسه ج 3 ص 301.

الجزائري شغوفاً بوطنه لا يرضى له أن يمس بسوء وأنه "إذا أمتدت الأيدي إلى وطنه بالتخون، واستطالت الألسنة على دينه بالزراية والتنقص، وتهافتت الأفهام على تاريخه بالقلب والتزوير وتسابق الغرباء إلى كرائمه باللص والتدمير، ثار وفار وجاء بالبرق والرعد، والعاصفة والصاعقة، وملاّ الدنيا فعلاً وكان منه ما يكون من الليث إذا دبس عرينه، أو وسم بالهون عرينه"¹.

ثم يصور كيف ينبغي أن يؤسس الشباب الجزائري وطنيته على أسس قيست على مبادئ الدين فيقول: "أتمثله بانيا للوطنية على خمس كما بني الدين قبلها على خمس: السباب آفة الشباب، واليأس مفسد للبأس، والآمال لا تدرك بغير الأعمال، والخيال أوله لذة وآخره خيال، والأوطان لا تخدم باتباع خطوات الشيطان"².

وحتى الخطاب الأدبي عنده الذي شكلته على الخصوص رايته "سجع الكهان" كانت له أبعاداً سياسية وطنية مختلفة إلى أن صار يعيد غير بالوطن لأنه هو المم والم³.

وحينما استقر بالقاهرة قبيل الثورة التحريرية لم ينشغل الشيخ الإبراهيمي بغير وطنيته فكتب عنها ومن ذلك مقالة "تحية غائب كالآيب" التي نشرت في البصائر في عددها 229 الصادر في 1953/05/15، التي يحيي فيها الجزائر من هناك ويخاطبها: "قل للجزائر الحبيبة هل يخطر ببالك من لم تغني قط عن باله؟ وهل طاف بك طائف السلو، وشغلك مانع الجمع وموجب الخلو عن مشغول هواك عن سواك".

هكذا كانت الوطنية إحدى انشغالات الشيخ الإبراهيمي الفكرية حزينا لوطنه مناهضا للاستعمار وقد قال عنه الشيخ الغزالي: "حزنه ظاهر على حاضر المسلمين، وغيطه متفجر ضد الاستعمار ورغبته شديدة في إيقاظ المسلمين ليحموا أوطانهم ويستنقذوا أمجادهم"⁴.

¹ - المرجع نفسه ج 3 ص 514.

² - المرجع نفسه ج 3 ص 517.

³ - المرجع نفسه ج 3 ص 534.

ثانياً: مرحلة الثورة التحريرية:

وهي مرحلة متميزة في فكر الشيخ الإبراهيمي إذ كانت القضية الوطنية الجزائرية محور فكره فلا تكاد تكون له كتابات في هذه الفترة (1954 - 1962) إلا عن الثورة وفلسفتها والدعوة إليها وبيان سبل إنجاحها. ولعله من سليات الكتابة عن الثورة اعتبار الثوريين هم الذين حملوا السلاح فقط كما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله، لأنه هناك من كان ثوريا ولم يحمل السلاح، ولكنه كان اللسان الناطق باسم الذين حملوه، ولولاهم ل بقي الثوار في حصار مادي وسياسي ومعنوي قاتل¹.

وقد كان الشيخ الإبراهيمي بعيدا عن معركة السلاح لكنه كان في معامع المعركة بفكره وقلمه، فكان أحد الذين تحدثوا باسم الثورة وأيدوها ودافعوا عنها ونادوا إلى نصرتها في الداخل والخارج، وحثوا على الحفاظ على منجزاتها إيمانا منه أنها الوسيلة التي يفهمها الاستعمار، وقد عمل جاهدا قبل الثورة على أن يعي الجزائريون هذه الحقيقة ففي سنة 1936 أثناء الاجتماع الخامس لجمعية العلماء المسلمين المنعقد بنادي الترقى ألقى الشيخ الإبراهيمي خطبة بين فيها أن الحقوق التي أخذت اغتصابا لا تسترجع إلا غلابة².

وهذا مما يدل على إيمانه وإيمان جمعية العلماء بضرورة الثورة منذ الأيام والسنوات الأولى من تأسيسها لكن الشيخ الإبراهيمي كان يرى ضرورة توعية الجزائريين بضرورة الثورة قبل الشروع فيها وأن تحرير الأرواح والعقول هو أساس تحرير الأبدان والأوطان فكان قلما ثوريا لامعا إلى أن اعتبر من أوائل الزعماء الذين احتضنوا الثورة حينما اندلعت وحثوا الشعب على

¹ - كلمة الشيخ الغزالي من مقال له نشر في مجلة الثقافة الجزائرية عدد ماي - جوان 1985 وجعل هذا المقال مقدمة للجزء الرابع من آثار الإمام الإبراهيمي.

² - الدكتور أبو القاسم سعد الله، مقدمة الجزء الخامس من آثار الإمام الإبراهيمي ص 6.

³ - آثار الإمام الإبراهيمي ج 1 ص 283.

الاتفاف حولها وهو لم يعرف بعد الهيئة المشرفة على الثورة (جبهة التحرير الوطني) وهذا لا يعود إلى عدم متابعة الشيخ الإبراهيمي للأحداث التي أفرزت هذه الهيئة. بل لأن المتبع لتطور الأحداث خلال خريف وشتاء 1954 حسب الدكتور أبو القاسم سعد الله يدرك أن اللجنة التي كونت جبهة التحرير وأعلنت الثورة لم تكن معروفة حتى لزعماء الحزب الذي خرجت منه فمابالك بقيادة التنظيمات الأخرى خاصة من كان منهم خارج الوطن مثل الشيخ الإبراهيمي¹.

لكنه رغم ذلك أيدها ودعا إليه وحث على الحفاظ عليها منذ اليوم الأول من أيامها ففي يوم 2 نوفمبر 1954 أصدر الشيخ الإبراهيمي بيانا باسم مكتب جمعية العلماء بالقاهرة يعلن فيه غبطته بإعلان الجهاد في الجزائر ويفصح عن شعور المغتربين من أبناء الجزائر لما علموا باندلاع الثورة في وطنهم، وكيف أنهم يحسون إحساسا يجعلهم وهم بالقاهرة كأهم في مواقع النار من خنشلة وباتنة.

وقد اعتبر الشيخ الإبراهيمي هذه الثورة نتيجة تحرك النخوة الوطنية في الجزائريين الذين كانوا دائما بالنسبة لفرنسا: "أشواكا نخز وأوجاعا تؤلم، وإن هذا الوخز والإيلام فإنما هي هداة عارضة ثم تعود وستلفظنا مكرهة عند الحشرة الأخيرة من حياتها وسنكون سبب موتها"². وبقي الشيخ مهتما بالثورة متتبعا لتطوراتها فنجد أنه يصدر بيانا آخر في 11 نوفمبر 1954 بعنوان: "أوسع المعلومات عن بداية الثورة في الجزائر" ينوه فيه بالثورة ويعتبرها المسلك الوحيد لتحرير الوطن، ويعلن رغبته في معاينة ما يحدث في الجزائر بعد 10 أيام من عمر الثورة، وهو البيان الذي كان الهدف منه التعريف بالثورة وإبطال مزاعم الاستعمار الذي كان يراها أحداث شغب لا ثورة شعب. فكان الشيخ الإبراهيمي ببيانته هذا مبلغا الرأي العام العالمي بأن ثورة

¹ - الدكتور أبو القاسم سعد الله المرجع السابق ص 7.

² - آثار الإمام الإبراهيمي ج 5 ص 39.

الجزائر قد اندلعت، وقد وزع البيان على وسائل الإعلام المصرية ووكالات الأنباء وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن الثورة كانت الانشغال الفكري لدى الشيخ إبراهيم. وبعد أيام وتحديدًا في يوم 15 نوفمبر 1954 يصدر بيانًا آخر بعنوان: "نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد" قال عنه الشيخ محمد خير الدين بأنه وجهه إلى الشعب الجزائري بمناسبة اندلاع الثورة يوم 1 نوفمبر 1954¹.

وهو بيان برر فيه الشيخ إبراهيم للجزائريين ضرورة الثورة والاستمرار فيها حتى النصر لأنهم آلوا إلى وضع لم يبق فرنسا لهم فيه دينًا ولا دنيا، ويعيدهم بالله أن يتراجعوا لأن التراجع هو فناؤهم الأبدي وذلمهم السرمد².

كما سخر الشيخ إبراهيم قلمه للتعريف بالثورة الجزائرية ففي سنة 1957 ألقى محاضرة في مركز الشبان المسلمين بالقاهرة عرف فيها بالجزائريين الذين يخوضون الثورة بأنهم أقاموا الشواهد الحية على بطولتهم واستماتتهم في الذيادة عن حرية وطنهم وأن هؤلاء فروع لتلك الأصول التي شيدت حضارة بتيهت وبجاية وتلمسان³.

وللتعريف بالثورة أكثر وكسب التأييد لها نظم يوم سمي يوم الجزائر في كل البلدان العربية والإفريقية والآسيوية حضره الشيخ إبراهيم حينما نظم بالقاهرة سنة 1957 وألقى فيه كلمة اعتبر فيها ذلك اليوم نصرًا معجلًا لنصر الجزائريين وموفقًا لثورتهم وتعظيمًا لشأنها، وتنويعًا بها كما فضح فيه العمليات الاستعمارية في الجزائر وقال بأن ذلك اليوم هو "إكبار المجاهدين

¹ - الشيخ محمد خير الدين - المذكرات - المؤسسة الوطنية للكتاب، ج 1 ص 384.

² - آثار الإمام إبراهيم ج 5 ص 35.

³ - المرجع نفسه ج 5 ص 186.

الجزائريين وإجلال مقصدهم وغايتهم من هذه الثورة وهو الحرية والاستقلال واحتقار فرنسا وجيشها".¹

لأن فرنسا لم تكن تقاتل وحدها بل كان لها حلفاء أيدوها في استعمارها للجزائر وأعانوها على ذلك بالرأي والمال والسلاح. وقد وقف الشيخ الإبراهيمي عند تلك القوة التي كانت فرنسا تحابه بها الثورة الجزائرية فكتب في هذا موضوعا بعنوان: "جهاد الجزائر وطغيان فرنسا" نوه فيه بعمل المجاهدين في الجزائر وقدرتهم على مجاهدة الجيش الفرنسي رغم التفوق الفرنسي في كل شيء ولم يأسف لذلك بل نبهه يفخر بأن الجزائر يكفيها شرفا أنها رغم ضعفها تحارب هؤلاء الأعداء الأقوياء المتحدين فتنتصر عليهم أجمعين".²

وفي إطار خدمة الثورة والتعريف بها أحيا ذكرى اندلاعها مثلما فعل في 1 نوفمبر 1955 الذي أحيا فيه الذكرى الأولى للثورة وفي 1 نوفمبر 1958 الذي أحيا فيه الذكرى الرابعة لاندلاعها وقد ألقى بالمناسبة كلمة ذكر فيها بالثورة وبمسيرتها وبحقوق المجاهدين الجزائريين على إخوانهم في المشرق لأن هؤلاء المجاهدين يقومون بواجب عظيم هو حل عقدة العقد من ألام استعمار عرفه التاريخ.³

وفي اعتناء الشيخ الإبراهيمي بالثورة وتطوراتها نبهه يرسم خطة لإنجاحها وذلك في مقال له بعنوان: "كيف تنجح الثورة في الجزائر؟" والذي يحدد فيها شروط نجاحها وهي ثلاثة: الإطالة والتعميم، والسلاح لأن هذه العناصر الثلاثة هي سر نجاح كل الثورات في العالم.⁴

¹ - المرجع نفسه ج 5 ص 190.

² - المرجع نفسه ج 5 ص 216.

³ - المرجع نفسه ج 5 ص 231.

⁴ - المرجع نفسه ج 5 ص 64.

كما تحتاج في نجاحها إلى دعم مادي فرائس في هذا الغرض مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ يطلب منه دعوة أهل البلد التبرع بالمال للثورة الجزائرية. وطلب الإبراهيمي من قبل من شيخ الأزهر يوم 12 نوفمبر 1954 أن يدعو المسلمين إلى الجهاد ضد فرنسا.

هكذا كان انشغال البشير الإبراهيمي بثورة التحرير كقضية وطنية كبرى إلى أن صارت عنده عقيدة إيمانية ولا أدل على ذلك من فتواه المعنونة بـ: "موالات المستعمر خروج عن الإسلام" والتي بين فيها علاقة الاستعمار بالإسلام وهي علاقة تناقض كلما حل أحدهما ارتفع الآخر لطبيعة التناقض الموجود بينهما فالإسلام دين الحرية. والتحرير والاستعمار دين العبودية والاستعباد؛ والإسلام شرع الرحمة والرفق وأمر بالعدل والإحسان والاستعمار قوامه الشدة والقسوة والطغيان إلى أن يستنبط أن الاستعمار عدو لدود للإسلام وأهله وأنه يجب على المسلمين معاداة الاستعمار لا موالاته¹.

ولما كتب النصر للجزائر ونالت استقلالها لم يخف قلم الشيخ الإبراهيمي. ولم يبرح فكرة القضية الوطنية بل كان يرى أنها دخلت مرحلة أخرى يجب أن تحظى بعناية فكرية جديدة.

ثالثاً: مرحلة الاستقلال:

وهي المرحلة التي لم يكتب للشيخ البشير الإبراهيمي أن يعيشها إلا لمدة ثلاث سنوات. ورغم قصر هذه المدة إلا أن الشيخ الإبراهيمي اهتم بها وكتب عن الأحداث التي عرفتها الجزائر في سنوات استقلالها الأولى التي عاشها الشيخ الإبراهيمي. وقد كان اهتمامه بالوطنية في هذه المرحلة متميزاً عن المرحلتين السابقتين لطبيعة هذه المرحلة وخصوصياتها.

¹ - المرجع نفسه ج 5 ص 68.

وفي الحقيقة هذه المرحلة حينما نبحث عنها في فكر الشيخ الإبراهيمي نجد أنها تبدأ قبل سنة 1962. ففي سنة 1959 حينما لاحت بشائر النصر، وبدأت إرهابات الاستقلال كتب الشيخ البشير الإبراهيمي مقالا بعنوان "فرنسا وثورة الجزائر" افتتحه بتأكيد النصر للثورة الجزائرية. ويتمنى فيه أن يقبض الله هذه الثورة بعد خمودها مؤرخا من أبناء الجزائر ينصفها وأن يكون هذا المؤرخ مستنير البصيرة، مسدد الفكر والقلم، صحيح الاستنتاج، شديد الملاحظة فقيها في ربط الأسباب بالمسببات¹.

هذه من أولى محطات التحول في الاهتمام بالوطنية عند الشيخ الإبراهيمي إذ يتجلى كيف أنه كان يفكر في هذه المرحلة قبل أوانها، وكيف كان تاريخ الثورة هو اهتمامه في هذه المرحلة الجديدة التي كان يؤمن أنها صارت قاب قوسين أو أدنى.

فلما كان أول يوم من أيام الاستقلال أعلن الشيخ الإبراهيمي بأنه سيعود إلى الجزائر حتى لا يتمزق وطنه، وذلك في تصريح له إلى جريدة الجمهورية يوم 05 جويلية 1962 والذي جاء فيه حينما سئل عن إمكانية عودته إلى الجزائر بسبب الخلاف الذي سمع عنه بأنه نشب بين الجزائريين قال: نعم، لن أتردد، ولكن أعتقد أنه سيزول سريعا وإن كان هذا الخلاف يحدث بشكل طبيعي فيجب أن لا تتسع هوته وأن يتوقف حتى لا تصبح قضية الوطن في خطر².

وتصريح الشيخ هذا فيه ما يدل على حرصه على الوحدة الوطنية التي دعا إليها قبل الاستقلال والتي تحققت باندلاع الثورة ويجب أن تستمر في عهد الاستقلال، وفي مرحلة الاستقلال هذه حينما عاد الشيخ الإبراهيمي إلى الجزائر كان أول من أم المصلين في صلاة الجمعة بمسجد كتشاوة وقد كانت تلك الخطبة تاريخية، لأنها أول خطبة تلقى في المسجد الذي اتخذ الاستعمار كاتدرائية كما كانت في بداية الاستقلال.

¹ - المرجع نفسه ج 5 ص 250.

² - المرجع نفسه ج 5 ص 304.

ولذلك كانت ذات بعد وطني عظيم. تمثل في الحديث عن ضرورة وحدة الجزائريين وتعاونهم وحذرهم واستعاذ بالله من كل داع يدعو إلى الفرقة والخلاف.

واتحاد الجزائريين في عهد الاستقلال لا يقل أهمية عن اتحادهم أثناء الثورة لأن الوطن دخل مرحلة جديدة من مراحل تاريخه هي مرحلة التشييد التي لا يمكن أن يستغني فيها عن جميع أبناء الجزائر، ولا يمكن إنجاحها إذا كانوا على حال من الفرقة والخلاف.

كما يبين الشيخ الإبراهيمي كيف تكون علاقة الجزائري مع الاستعمار الذي خرج من الأرض تاركا آثاره، فلا يمكن أن يتعامل معه الجزائري إلا فيما اضطر إليه لأنه كالشيطان، والشيطان لا بد من معاداته.

ويتجلى أيضا اعتناء الشيخ الإبراهيمي في هذه المرحلة بالوطنية وقوفه على آثار الثورة من يتامي وأرامل ومشوهين وغيرهم فيدعو إلى رعايتهم والاعتناء بهم ودفع الأحران عنهم، كما يوجه كلمته إلى المسؤولين من قادة الثورة بأن يحافظوا على منجزات تلك الثورة التي نالوا بها إعجاب العالم وأن لا يغتروا بما وصلوا إليه فيفسدوا تلك السمعة العظيمة.

ويدعو في تلك الخطبة أيضا إلى فتح عهد جديد من الوطنية عهد الإصلاح والتجديد والبناء والتشييد وهو اهتمام ينسجم مع طبيعة المرحلة. ويختتم الانشغال الوطني عند الشيخ الإبراهيمي بإصداره بيان 16 أبريل 1964 أعرب فيه عن الوضع الذي آلت إليه البلاد وخطورته على الوحدة الوطنية التي يطمح إليها الشعب كما يطمح إلى الرفاهية والسلام. وهكذا ظل الشيخ الإبراهيمي طيلة حياته مجاهدا بقلمه من أجل الإسلام والعروبة والجزائر إلى أن توفاه الأجل في 20 ماي 1965 ففقدت فيه الجزائر عالما جهبنا ووطنيا غيورا على وطنه وأمته.

خاتمة:

ومن خلال ما تقدم يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

أولاً: إن الشيخ الإبراهيمي الذي اشتهر كرجل علم ودين كان رجلاً سياسة ودبلوماسية عالية، والسياسة في نظره جهاد وعلماء الجزائر مجاهدون بالطبيعة فهم سياسيون بالطبيعة. ثانياً: لقد ملكت الوطنية على الشيخ كل اهتماماته وقد باح بذلك قائلاً: (لن أنسى يا أم أنك كنت لي ماحطة العرس وماشطة العرس فلا تنسي أني كنت لك من عهد التمايم إلى عهد العمائم، ما شغلت عنك إلا بك، ولا خرجت منك إلا عائداً إليك)¹. ثالثاً: إن فكر الشيخ الإبراهيمي كله فكر حي، يحتاج إلى دراسة ونحت وكشف أبعاده المختلفة ومنها البعد الوطني الذي كان يشكل أحد أبعاد الخطاب الإبراهيمي في مجالاته المختلفة.

¹ - المرجع نفسه ج 4 ص 183.